مع الشاعر الساخر جعفر الأمين
شيوعياً سابقاً ومربياً رائداً

تتقاطع عندي وأنا أكتب عن جعفر الأمين أمور شتى. يعود بعضها في الدرجة الأولى إلى ذكريات جميلة لي معه. ويعود بعض آخر إلى سيرته التي كتبها بنفسه عن معاناة والدته الحبشية قبل أن تصبح والدته والزوجة الثانية لوالده المرجع الديني الشيعي السيد محسن الأمين، ثم بعد أن أصبحت والدته وأصبح هو ابنها، ويشاركها معاناتها. ويعود بعض ثالث إلى شخصيته التي امتزج فيها الجد بالسخرية، سواء في علاقاته بالناس وبالأشياء وبالأحداث، أم في التزامه بالنضال عندما أصبح شيوعياً، أم في مهنة التدريس عندما أصبح مربياً صاحب رسالة. أما الأمر الرابع فيعود إلى العلاقة الملتبسة التي ربطته بوالده في المرحلة الأولى من حياته، ثم في المراحل اللاحقة عندما كبر ونضج وصارت له شخصيته التي تعبر بوضوح بارز عنه وعن أفكاره وعن مشاعره وعن الطريقة التي اختارها نمط حياة وعلاقات إنسانية. ثم أنني لا أستطيع، وأنا أكتب عنه، إلا أن أربط بينه وبين شقيقيه هاشم وعبد المطلب، برغم الإختلاف في شخصية كل منهم في نمط حياته. كان الأخوة الثلاثة يتميزون بصلة قربى بينهم غير صلة الدم، صلة قربى فكرية باسم الإشتراكية، وصلة قربى في التعدد والتناقض اللذين لازما شخصية كل منهم في المراحل المختلفة من حياته. ولم يكن حسن الشقيق الأكبر من الطبيعة ذاتها التي اتسمت بها شخصية أشقائه الثلاثة. كان مختلفاً عنهم في افكاره وفي نمط حياته وفي علاقاته وفي اهتماماته. وكانوا مختلفين عنه في هذه الأمور جميعها. كانوا مندمجين فيما بينهم بالفطرة وبالطباع وبما أشرت إليه قبل قليل من أمور أخرى. لكن الأربعة كانوا جميعهم أبناء المرجع الديني السيد محسن، من حيث الثقافة، ومن حيث الإستقلالية في الشخصية، ومن حيث الإرتباط بالعصر، ومن حيث تجاوز التقاليد البالية، كل منهم على طريقته، التقاليد التي كانت سائدة في عصر والدهم وفي العصر الذي كانوا شركاء له فيه على امتداد ما يقرب من ربع قرن من حياته في كل من مدينة دمشق في سوريا، وفي بلدة شقرا في جبل عامل التي ولدوا فيها جميعهم أباً عن جد.

تعرفت إلى جعفر في عام ١٩٥٠ عندما عينت مدرساً في مدرسة بلدة شمسطار البقاعية التي كان قد عين مديراً لها قبل وصولي إليها. أمضيت معه عامين في تلك المدرسة عرفاني إليه وإلى شخصيته تلقائياً ومن دون وسائط وبسرعة استثنائية . وصرنا صديقين منذ ذلك التاريخ حتى لحظة مغادرته الحياة في عام ١٩٨١.

كنت في العشرين من عمري يوم التقينا في مدرسة شمسطار. كنت أصغر الأساتذة سناً بفارق وصل عند بعضهم، أو كاد، إلى عمر والدي. وكنت قد انتميت إلى الشيوعية بالفكر من دون الإلتزام بالحزب الشيوعي اللبناني. وكان جعفر قد غادر انتماءه التنظيمي إلى الحزب الشيوعي من دون أن يتخلى عن انتمائه الفكري إلى الشيوعية. وأحس كل منا برابطة قربى فكرية تربطه بالآخر. وإذ كنت في تلك المرحلة من حياتي شديد الحماس لأفكاري، فقد كان يتعامل معي تعاملاً تختلط فيه الصداقة والزمالة بمشاعر الأبوة الهادئة الدافئة. وعندما ارتكب أحد طلابي، وهو ابن رئيس البلدية، حماقة من وحي حماسه الثوري، أتحمل شخصياً بعض المسؤولية عنها، بوضع شعارات حزبية على الجدران الأربعة للمدرسة وجدران بيوت عديدة للبلدة احتفالاً بعيد أول أيار، عاتبني السيد جعفر بلهجة اختلطت فيها الصداقة بالأبوة، وحماني من غضب أهل البلدة ومن عقاب رجال الأمن الذين جاءوا إلى المدرسة للتحقيق في الحادث. وللحقيقة التاريخية أقول في هذا الصدد بأنني شكلت في البلدة مع بعض أصدقائي، ممن كانوا يعتبرون أنفسهم شيوعيين بالفطرة، خلية حزبية لا تربطها صلة بقيادة الحزب في المنطقة. وهي كانت خلية أقرب إلى حلقة ثقافية. كنا نقرأ فيها بعض ما كان يصدر من مقالات في المجلة الأممية "في سبيل سلم دائم في سبيل ديمقراطية شعبية" التي كانت تصدر عن "الكومنفورم" الذي كان مركزه في بوخارست. وكانت تترجم في لبنان. وكان يقوم بترجمتها فرج الله الحلو بعد أن أخرج من موقع القيادة بسبب موقفه المعروف من قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين. وكان يمثل الحزب في الكومنفورم نقولا شاوي.

في تلك الخلية بالذات اتخذنا قراراً بكتابة شعار نحيي فيه أول أيار عيد العمال: **عاش أول أيار. يا عمال العالم اتحدوا.** وقررنا أن يرفق هذا الشعار بصورة المنجل والمطرقة. وكلفنا ذلك الشاب المتحمس بتنفيذ المهمة. وأوصيناه بأن يكتفي بكتابة هذين الشعارين وصورة المنجل والمطرقة مرة واحدة، وأن يختار مكاناً واحداً لذلك. لكن حماسه ساقه إلى اختيار جدران المدرسة الأربعة وعدداً من جدران بيوت البلدة مخالفاً بذلك القرار الذي كنا قد اتخذناه في اجتماع الخلية. والجدير بالذكر أن ذلك الشاب قد صار فيما بعد ضابطاً رفيع المستوى في الجيش اللبناني والتقيت به عدة مرات بعد ذلك.

لا أنسى ذينك العامين اللذين أمضيتهما في شمسطار. فقد كانا بالنسبة إليّ المرحلة الأولى التي تمرست فيها بالعمل، وأقمت علاقات صداقة مع أهل البلدة، شبابها وكبارها، فضلاً عن بعض الأساتذة الذين ربطتني بهم صداقة حميمة، هم السيد جعفر نفسه وعبد الحسين حامد وبولس الحلو، ابن شقيقة القائد الشيوعي يوسف خطار الحلو.

اشتهر جعفر الأمين بشعره الساخر، الذي كان فيه لصيقاً ببيئته الجنوبية. كما اشتهر، من حيث العمل المهني، بكونه صاحب مدرسة راقية في التربية والتعليم، مدرساً وإدارياً. واهتم في المرحلة الأخيرة من حياته بجمع الأمثال الشعبية وبشرح الظروف التي أسست لكل من تلك الأمثال. وقد بلغ عددها ألفاً وخمسماية وخمسة وتسعين مثلاً. ويشير شعره وتشير الأمثال التي جهد بجمعها إلى الصراحة الجميلة التي درج على مخاطبة أبناء شعبه بها، تأكيداً على انتمائه إلى بيئته، وإلى طموحه لتحريرها من كل ما أدخل إليها من أفكار مضللة ومن تقاليد زائفة. فكان بجهده ذاك يكمل ما اضطلع به والده من موقعه كمرجعية دينية كبيرة في ميدان الدين لتحرير الدين مما أدخل إليه من بدع وخرافات شوهته وشوهت قيمه.

لنتعرف، قبل الدخول في عالم جعفر الأمين الثقافي الذي صدرت ثلاثة كتب تعبر عنه بوضوح، إلى بعض جوانب سيرته التي كتبها بقلمه، وأكمل الباقي منها بعد وفاته ابنه البكر أكرم وشقيقه هاشم.

ولد جعفر في عام ١٩٠٨ في بلدة شقرا الجنوبية. ولد من إمرأة أفريقية حبشية وصلت إلى والده السيد محسن الأمين بعد معاناة طويلة في تنقلها القسري من مكان إلى آخر. تزوجها والده وأنجب منها الولد الوحيد الذي صار يحمل اسم جعفر. وكانت زوجته الأولى أم أولاده جميعاً باستثناء جعفر تنتمي عن طريق الأم إلى عائلة مروة. والظريف في ولادة جعفر أن والده السيد الأمين أعطاه اسم حسن، تيمناً باسم الإمام الحسن الإمام الثاني بين أئمة الشيعة الإثني عشر. وبعد بضعة أشهر من ولادة حسن (جعفر) ولد الإبن الثاني من زوجته اللبنانية. وإذ أصرت الزوجة على إعطاء ابنها اسم حسن، وافق الوالد على طلبها وغير اسم الإبن الأول من الزوجة الأفريقية وأعطاه اسم جعفر. كان السيد محسن عندما ولد جعفر وحسن يقيم في دمشق بعد عودته من النجف فقيهاً مميزاً. وأنشأ مدرسة فيها كانت تحمل اسم المدرسة العلوية، ثم صارت تحمل اسم المدرسة المحسنية. وكان يأتي إلى شقرا لقضاء عطلة الصيف فيها، أو لمهمات دينية وعائلية. سافر جعفر وهو في أول طفولته مع والدته إلى دمشق ليتابع تربيته وليدخل مدرسة والده عندما يصبح مؤهلاً لذلك. ويروي جعفر تفاصيل تلك المرحة من حياته بكثير من الأسى والمرارة، لا سيما بعد أن أخرجت والدته من بيت العائلة وحرّم عليه الإلتقاء بها إلا في السر. كما يتحدث عن معاناته عندما علم بوفاتها من دون أن يكون بالقرب منها، ومن دون أن يبكيها كما يبكي الأولاد أمهاتهم عندما يفارقن الحياة.

يقول جعفر في وصف مأساته في السيرة التي كتبها بقلمه:"**وهكذا بكل بساطة تموت أم ويتيّم طفل دون أن ترف لإنسان عين أو يتأثر قلب أو تقرأ فاتحة أو تطّلب رحمة. فإن كان هناك من مات عطشاً فقد ماتت بأشد من ذلك، ماتت مقهورة عطشى إلى كل شيء. وإن كان هناك من يسمى بسيد الشهداء، فهي أميرة الشهيدات وقديسة القديسات. لقد قضت وفي قلبها حسرة وفي صدرها غصة، وكم حسرات في نفوس كرام**".

يسترسل جعفر في سرد سيرته فيروي أحداثاً عاشها وعانى فيها شخصياً وعانت فيها عائلته في تنقلها الدائم بين دمشق وشقرا، خلال الحرب العالمية الأولى، وخلال فترة الإنتداب التي كان لوالده السيد محسن فيها دور ريادي في مناهضة الإستعمار الفرنسي والمرتبطين به في سوريا ولبنان. وتوقف جعفر عند المرحلة التي كان يتهيأ فيها العالم للحرب العالمية الثانية ليقدم صورة عن التخلف الذي كان يسود في قراءة بعض القوى الوطنية لتلك الحرب وللقوى المتصارعة فيها. إذ اعتبر أولئك الوطنيون أن النازية هي حليفتهم في مقاومتهم للإستعمار الفرنسي. وكانت قراءة جعفر تلك تشير إلى ارتقاء واضح وإلى نضج بارز في شخصيته وفي أفكاره وآرائه مما كان يجري في عصره. يقول جعفر في هذا الصدد، وكان قد بدأ يمارس التدريس في مدينة النبطية الجنوبية، وكان قد أصبح عضواً في الحزب الشيوعي، يقول: "**وقبل الحرب العالمية الثانية وأثناءها كان من الوطنية في هذه البلاد حب النازية والفاشية نكاية بفرنسا وحليفتها إنكلترا، كذاك الذي يعملها في سرواله نكاية بالطهارة. ولتسحق الجمهورية في أسبانيا ولتبتلع دول أوروبا ولتحطم الحبشة ولتكن روسيا مدى حيوياً عاملة لغيرها، دون التفكير بأن الموسى ستصل حتماً بعد هؤلاء إلى لحيتنا، وأن فرنسا إذا كانت الكحل فإن الألمان والطليان هم العمى بعينه. وهذا الجو غير المنطقي الذي كان يحيط بنا لم تكن قلة منا مرتاحة إليه حيث يمجد التمييز العنصري واستغلال الإنسان للإنسان وحيث تخنق الحريات وتكبت الإرادات. وكنا ننتظر بفارغ الصبر ورود جريدة "صوت الشعب" لقراءة مقالات الكاتب الروسي اهرنبورغ، حيث تشع روح التفاؤل والأمل بانتصار الإنسانية وانحسار موجة الطغيان، وحول هذه المقالات وغيرها مما كانت تذيعه الإذاعات الحرة كنا نعقد الحلقات الصغيرة. وساعد موقع النبطية على الإلتقاء بفئات من خارجها تدين بنفس الفكرة ومنهم المحامي مير مسعد من مرجعيون، الذي حمل إلينا في إحدى الأمسيات بتكليف من الحزب الشيوعي ببيروت فكرة تأليف حزب شيوعي في النبطية. وكانت جلسة سرية للغاية، حضرها بالإضافة إليه محمد سليمان ظاهر وحبيب طه وأنا، ولم نكن لنجبن عن الإقدام على ما اقترحه وإن كنا لا نرغب بأن نكون في الواجهة. فما قيمة القول إذا لم يقترن بالفعل. فالتدين كما يقول**

المثل ليس بفقع القباقيب، والعقيدة كذلك ليست بالشعارات فقط. مع العلم أن الشيوعية في تلك الأيام لم يكن فيها ما يمكن أن يلحسه الإنسان عن إصبعه بل كان فيها فك رقبة، ومن يعتنقها إنما يقدم رجليه لفلق الدولة ورزقه للإنقطاع وسمعته للمهانة، عدا عن كون الشيوعيين في ذلك الوقت كانوا يعتبرون كافرين، لأنهم يحاربون هتلر الذي كان يعتبر عند غالبية أهل هذه البلاد كالمهدي المنتظر لهذه الأمة التي اعتادت دائماً كالقرعاء التغني بطول شعر خالتها. ولم ننس حتى الآن السيف الذي قدم لموسوليني في تلك الأيام باسم (سيف الإسلام) تقديراً لبطولته في إخضاع الحبشة وهدم استقلالها. وانتهى الإجتماع الرباعي السري بتأليف نواة الحزب الشيوعي في النبطية من ثلاثة اختير حبيب طه ليكون المسؤول فيه. أما العضو الثالث محمد سليمان ظاهر فلم يطق صبراً وتركنا من أول الطريق. ونما الحزب ونشط واتسعت قاعدته فرؤي اختيار عبد اللطيف حمادة لتولي المسؤولية فانسحب له حبيب طه. وقد استجاب للدعوة الكثيرون ممن لم يكونوا في الأصل بعيدين عنا في حياتهم العادية. وقد دفعتهم نفس الدوافع لاعتناق تلك الفكرة، وهي التخلص من الجمود والتحجر والتطلع إلى مستقبل أفضل وأجمل للجميع. وبهذا جمع الحزب حوله النخبة من جميع الفئات، ولا أقول الطبقات لأن الطبقية تكاد تنعدم في النبطية. ومن قديم الزمان ليس فيها ذقن ممشطة وذقن غير ممشطة، بل كل الذقون فيها قابلة للتمشيط".

وتبدو في هذا النص بوضوح صراحته وجرأته ولغته الساخرة في عرض مواقفه وأفكاره ببساطة ومن دون تكلف.

أمضى جعفر القسم الأساسي من حياته في التعليم مدرساً وإدارياً. لكنه لم يكتف بذلك الدور الذي أعطاه كل جهده، وقدم فيه أرقى ما يمكن أن يقدمه مربّ للأجيال الجديدة. بل هو مارس العمل السياسي في الحزب الشيوعي إلى أن تعب. فغادر التنظيم من دون أن يغادر أفكاره الإشتراكية معتبراً إياها حلماً طوباوياً. وحرر نفسه من الوهم الذي كان سائداً بتحقيقها من خلال القفز في شكل متعسف فوق المراحل التاريخية، استناداً إلى ما كان ينتظره الجميع في بلداننا من دور للإتحاد السوفياتي يمارسه مباشرة أو بالمثال في كل البلدان الشبيهة ببلداننا بالنيابة عن قواها السياسية والإجتماعية التي لم تكن مهيأة تاريخياً للقيام بتلك المهمة التاريخية. ولأن جعفر كان بطبيعته ساخراً، وكان صريحاً وجريئاً في إبداء آرائه وفي التعبير عن مواقفه، فقد استخدم الشعر كوسيلة للتعبير الساخر عن مواقفه. وأنشأ للغرض ذاته مجلة فكاهية سماها "أبو كشاكش". وجعلها سجلاً للوقائع الإجتماعية في بلدته شقرا. ويصف شقيقه هاشم تلك المجلة بالكلمات التالية في رثائه لشقيقه جعفر.

يقول هاشم في هذا الصدد:" **كان جعفر ينشر في كل عدد صورة كاريكاتورية عن واقعة من تلك الوقائع، ورواية للحوادث اليومية من حياة القرويين وتعليقات عليهما، فيها الفكاهة والسخرية والهجاء والنقمة. ورأى أن يجمع الأمثال الشعبية، فصنع دفتراً خاصاً وأخذ يستقصي هذه الأمثال من أفواه القرويين ولا سيما الشيوخ والعجائز ويتحرى أصلها فيثبته مع المثل إن كان له أصل معروف. وأخذ يتتبع الوقائع الفلوكلورية من عادات وأزياء وأغان وحكايات وأساطير فيكتبها ويعلّق عليها. وقد عاد إليها أيام شبابه واكتمال رجولته فنقحها وهذبها. وكذلك أخذ يرود المعالم الخاصة بالقرية ما كان منها طبيعياً وما كان من صنع الإنسان، وما عفى عليه الزمن ونسيه الناس، فيتفحصها ويستقصى أسماءها وما يتعلق بها من حوادث على قدر الإمكان. وتنبه إلى وجود بقايا من بعض الآثار القديمة ما استعمله الناس في البناء أو لأغراض أخرى، وهم لا يقدرون حقيقته وقيمته، كتيجان الأعمدة ولوحات الفسيفساء، وقد تهشمت وانطمست ماهيتها، فجمع منها ما استطاع جمعه من أيدي الناس ومن الخرائب**".

ظل جعفر الأمين على امتداد حياته أميناَ لبيئته الجنوبية، حتى حين كان يقيم في دمشق مع والده، وحتى حين قضى جزءاً من حياته مدرساً ومربياً في بلدة شمسطار البقاعية وفي مدرسة حلبا العكارية. وكما أشار إلى ذلك شقيقه هاشم فقد شغل نفسه في الفترة الأخيرة من حياته، عندما دخل في سن التقاعد، بجمع الأمثال الشعبية. وقد جمع منها كما أشرت إلى ذلك ألفاً وخمسماية وخمسة وتسعين مثلاً عبّر في اختياره لها عن المزاج الشعبي الصادق، وعن مزاجه هو.

أما جريدة "أبو كشاكش" الفكاهية الساخرة فهو يعرفها إلى القارئ بصفتها **جريدة خطية محلية كاريكاتورية حررها السيد جعفر الأمين، وشعارها هذان البيتان من الشعر:**

من ذا يعارض أو يناقش فاق الجميع أبو الكشاكش

فاق الجرائد كلها حتى "الجراب" مع "المناغش"

و"الجراب" هي جريدة جراب الكردي الكاريكاتورية التي كانت تصدر في دمشق. أما "المناغش" فهي مجلة مصرية تشبهها. ظهر العدد الأول من "أبو الكشاكش" في السابع عشر من شهر تشرين أول من عام ١٩٢٥. وفي تلك الفترة ظهرت جريدة خطية ثانية لأخيه السيد حسن الأمين أسماها "بريد العرب". كما ظهرت جريدة ثالثة للسيد عبد الكريم محمود الأمين أسماها "الكوكب" بالإضافة إلى جريدة "الخنساء" للسيدة سكنة محمد سعيد الأمين، ولاحقاً جريدة "الترقي". وبعد مرور سنوات طويلة على كتابته لجريدة "أبو الكشاكش" بدأت أعدادها تتعرض للتلف بسبب

عوامل الزمن، فقام السيد جعفر بنقل وكتابة ما ورد في صفحاتها على أوراق جديدة ضمن دفتر خاص كرسه لهذه الغاية.

تلك هي صورة مكثفة لشخصية هذا الإنسان الجميل الذي يدل كل شيى في سيرته على شخصيته التي يمتزج فيها بالفطرة الجد بالهزل وبالسخرية، حتى في أكثر الأمور علاقة بالمواقف السياسية والفكرية التي يريد صاحبها إيصالها إلى الناس. غير أنني لا أستطيع وأنا أنهي هذا الحديث عن جعفر الأمين إلا أن أشير، ولو مجرد إشارة، إلى صديق جعفر وزميله في التدريس، ونظيره في السخرية الجريئة. إنه عبد الحسين حامد الذي رافق جعفر في انتمائه إلى الشيوعية، ورافقه في الخروج التنظيمي من الحزب، من دون أن يتخلى أسوة بجعفر عن انتمائه الفكري إلى الإشتراكية.